ضيوف الصحراء

جلس أحمد افندى عبد البر مطرقاً يفكر فى طريقة تمكنه من القبض على عصابة اللصوص التى سطت على منزله ليلا بالعزبة ، فأخذت ما ملكته يدها من حلى وأوراق مالية بعد أن أخلت زريبة المواشى مما كانت تحويه من ثيران وبقر وجموس ، بينما كان بمصر يبيع ما أنتجته الأرض من قمح وشعير .

كان أحمد افندى عبد البر أحد أعيان قريته ، قد قضى زمناً طويلا باحدى المدارس العالية ، وعاد إلى قريته عقب وفاة والده لمباشرة أشغال الزراعة .

وبفضل كده واجتهاده ادخر مبلغاً عظيما ، ثم باع ما تركه له والده من أطيان متفرقة ، فكان مجموع المبلغ ثمن هذه العزبة التى تحوى خمسين فداناً من أجود الأطيان .

كان يقيم بالعزبة بضعة أشهر بين المزارع وحياة القرى الهادئة . ومن حسن حظه أن كانت عزبته بالقرب من احدى الصحراوات التى يقطن بها بعض الأعراب أصحاب العادات الغريبة . فكان ذلك مما يتمم سروره مدة الاقامة بالعزبة .

ثم يحمل ما حصله من ايجار وثمن محصول ويذهب لقضاء بضعة أشهر بمصر بين زوجته الوفية المتعلمة ، وابنه الصغير الذى رزق به بعد ما قطع أمل الذرية .

على هذا المنوال كانت حياة أحمد افندى عبد البر ، ترفرف على بيته السعادة سواء كان بمصر أو بالعزبة حتى أصيب بهذا الحادث الفجائى (حادث السرقة) الذى قطع عليه صفو تفكيره وفيما كان أحمد افندى جالساً فى منزله بالعزبة دخل عليه رجل يقول : لاتؤاخذنى ياسيدى فقد دخلت عليك دون استئذان ، وذلك يرجع إلى أهمية ما جئت إليك من أجله . وبما أنى لم أجد الخادم ، فلم أر بداً من الدخول لئقى من مكارم أخلاقك .

ونظر أحمد افندى إلى محدثه فوجده رجلا طويل القامة ذا لحية كثيفة يمثل أهل الطرق الصوفية ، إلا أن عصاه الضخمة والرسوم التى على صدره ويديه تدل على سوء سلوكه فى الزمن الماضى ، فان ذلك من علامات أشرار الأرياف .

قال أحمد افندى مبتسما ابتسامة مصطنعة وهو يشير إلى أحد المقاعد : تفضل .

ولم يكد الرجل يجلس حتى قال : لقد تألمت جدا ياسيدى لما بلغنى من تجرؤ اللصوص

على سرقتك . وأنا عليوه عيد البارى ناظر هذه العزبة سابقاً ، قدمت اليك لاخبارك بما استنتجته من معلومات عن هذه السرقة .

قال أحمد أفندى : أنا أعلم بأن اللصوص لم يجرؤا على هذه الفعلة من تلقاء أنفسهم ، بل لابد من دسيسة لهم دلتهم ومكنتهم من السرقة .

صحيح أن لكل سارق دسيسة ، خصوصاً لسارق منزلنا هذا ، الذى هو فى حجاب منيع . ولكن يا شيخ عليوه ، ما هى هذه الدسيسة هنا ؟ أتراها رجلا من الخفراء ، أم من المزارعين ؟ أخبرنى به حالا لأقضى على حياته ، فقد خاننى خيانة لا عقاب لها إلا الموت .

يا سيدى أنا وجل من التصريح باسم من فعل هذه ، إنه ليس رجلا من الخفراء ولا من المزارعين ، بل هو أقرب إلى سيدى من ذلك .

تغير أحمد افندى واصفر لونه وجمد دمه فى عروقه ثم قال : أخبرنى يا عليوه بما تعلم حالا ، أتريد أن تقول : هى خادمة البيت الخاصة ؟

لا ياسيدى ، بل أقرب من ذلك . وهنا اشتد الأمر على أحمد افندى فقال : أتريد القول بأن هذه الدسيسة هى فايدة زوجتى ؟

نعم يا سيدى ، وإنها هى التى دبرت لك هذه المكيدة بواسطة رجل تبادله الحب .

هذا أمر غير ممكن . هب أنها ضحت من مالى فى سبيل من تبادله الحب ، فهل تقبل أن تضحى حياتها من أجل ذلك ؟

يا سيدى إنه ليس بعيدا على دهاء النساء الخائنات ، أن تغطى سرقة أموالك بتضييع حياتها التى تعاد اليها ثانياً . فقال أحمد افندى : اذن فهل لك أن تخبرنى عن ذلك الشخص ؟

هذا ما لا يمكننى الآن ياسيدى عمله ، غير أنى أتيت لك بمسألة ستتضح لك فيما بعد . وهى أن أحد دائنيك تمكن من أخذ المستند المحول عليه فى مقابل نقود دفعها لمعشوق فايدة ، كما ان ذلك الشخص أخبرنى بأن فايدة أرسلت إليه خطاباً تطلب حضوره بالعصابة لتنفيذ الخطة التى اتفقا عليها ، كما أرسل إليها الرد ينبئها بقدومه ، ولو بحثت جيداً ربما تجد عندها هذا الخطاب .

وهنا تأهب عليوه للقيام قائلا : أرجو يا سيدى أن تأذن لى الآن ولى عودة إليك قريباً وثق بأنى سأبذل كل جهدى فى سبيل اعادة السرقة ، ولا يتم ذلك إلا بعد تبليغ البوليس .

قال ذلك ثم خرج ، وترك أحمد أفندى يسير فى الغرفة ذهاباً وإياباً ، بينما كانت فايدة بمنزل ناظر الزراعة .

حانت من أحمد افندى التفاتة نحو السرير فوجد ورقة مطلة من بين الوسائد ، فأسرع نحوها ليكتشف ما تحويه فاذا بها خطاب موجه الى فايدة من عشيقها المزعوم عليوه .

فانقضت الصاعقة على أحمد افندى بعد تلاوته إذ تبينت له خيانة زوجته . وجلس يتطاير الشرر من عينيه ويفكر فى طريقة الانتقام . ثم نادى على الخادم ، فلما حضرت اليه قال .

ألم تعد سيدتك من عند الناظر ؟ قالت : كلا يا سيدى .

فتأهب للقيام قائلا : إذا حضرت لا تدعيها تخرج ، وأغلق الباب دونها حتى أعود .

وفى الصباح دخل ناظر الزراعة فى صحبة من الفلاحين حجرة أحمد افندى ، فوجدوه يسير ذهاباً وإياباً ، غارقاً فى بحار من التفكير ، وقد احمرت عيناه من عدم النعاس فى هاته الليلة . قال الناظر دون تحية : سيدى ! لقد جئنا اليك لنبشرك بعودة السرقة والقبض على العصابة .

دهش احمد افندى فى بادئ الأمر ، وقال بعد أن وثق بأنه فى يقظة : ذلك يرجع لحسن تدبيرى . ولكن كيف قبض على العصابة بهذه السرعة ؟

لقد وجد خادم المواشى ختما عليه اسم صاحبه ، كما وجد خطابا باسم رجل يدعى عليوه فلم ينتظر أحمد افندى بقية حديث الناظر ، بل قال : عليوه عبد البارى !

نعم يا سيدى . ولما علمت السيدة فايدة بذلك بلغت البوليس وأمرتنا بعدم إخبارك بشيء ، حتى يقبض على العصابة . وحضر ضابط بوليس ومعه جنود ، فأخذوا سيدتى إلى قرية المدعو عليوه عبد البارى ، وهى قريبة من هنا : ولما أجريت عملية التفتيش بمنزل عليوه عبدالبارى ، وجدوا كل ما سرق ، وقد اتضح لنا بأنه رئيس العصابة ، وقد أخبرته سيدتى بأن هذا الرجل كان يحاول التودد إليها ، كما أنه توسل إليها لمساعدته فى العودة إلى نظارة العزبة .

لم يفه الناظر بالكلمة الأخيرة حتى وقع أحمد افندى مغشياً عليه . فأحضر أحدهم قدحاً من الماء ونضح به وجهه حتى أفاق قليلا ، فقال بصوت مختنق بالبكاء : فى ذمة الله يا فايده ، لقد تمكن المحتال من التفرقة بيننا ، وقد جنت عليك يدى دون روية . فصاح الناظر : لم تقول ذلك يا سيدى والسيدة على قيد الحياة وهى الآن بمركز البوليس ؟

لم يستمع أحمد افندى إلى الناظر ، بل نظر إلى رجلين دخلا ضمن خدمه وقال :
أين ذهبتما بفايدة ؟فأجابا : إن المطعونة ياسيدى نعيمة الخادم .
دهش الناظر دهشة شديدة وقال : ما هذه المسألة يا سيدى ؟
لم يلتفت اليه أحمد أفندى، بل استأنف حديثه مع الرجلين قائلا : وأين ذهبتما بها ؟
ذهبنا بها ناحية فى الجبل تعالج سكرات الموت، وقد أشفقنا عليها، وكنا اتفقنا على أن نعيدها إلى منزل أحدنا حتى تشفى لولا أنها توقفت عن ذلك ، وأخبرتنا أنها أرادت أن تضحى بنفسها فداء لسيدتها لما رأتك قد صممت على قتل السيدة فايدة ، وتعمدت النعاس على سرير سيدتها حتى تزعم أنت أنها هى وتقتلها .

فقال أحمد افندى : الحمد لله الذى أنقذ فايدة من النكبة التى كادت تودى بحياتها ولكن كلما خرجنا من مأزق وقعنا فى أحرج منه ، فان فقدان هذه الخادمة أيضاً من المصائب الكبرى ، ثم قال موجهاً القول الى أحد الفلاحين : اذهب يا غنيمى وتجسس عليها عسى أن تأتينى بها أعالجها حتى تشفى .

ذهب غنيمى ، بينما أخذ أحمد افندى يحدث الناظر ومن معه بشأن المدعو عليوه عبد البارى ، وما دار بينهما فى حبك الفتنة .

وبينما هم فى حديثهم ، وإذا بفايدة مع بعض من الجنود ، يحملون السرقة ويريدون تسليمها الى أحمد افندى ، فلما انتهت عملية التسليم ذهب الجنود ، وجلست فايدة تحدث زوجها عن الخطة التى أخطتتها حتى قبض على رئيس العصابة .

وقطع على الجميع حديثهم غنيمى وهو يكفكف دموعه حزناً على هذه الخادم التى كانت محبوبة عند الجميع ، لأنها كانت ذات آداب وحسن معاشرة ورقة حديث .

قال غنيمى بعد أن أخرج منديلا ، وكفكف به دموعه : ذهبت يا سيدى لأتجسس عليها ، وقد سرت فى بعض دروب الجبل حتى رأيت أثر الدم ، عندذلك ظننت بأنه افترسها وحش من وحوش الجبل ، ولكن لم أقنط من العثور عليها . فسرت متبعاً أثر الدم ثم بصرت بخيام منصوبة فذهبت اليها ووجدت جماعة من العرب جلوساً ، فسلمت عليهم وسألونى عن شأنى فحدثتهم بحديث نعيمة فقال كبيرهم لأحدهم : اذهب به يا مسعود الى هاته الفتاة المطعونة ، التى التقطناها من الطريق فى مسيرنا بالأمس عسى أن تكون هى .

فذهبت يا سيدى مع مسعود الأعرابى حتى أدخلنى خيمة فيها نسوة من العرب فاذا بنعيمة ملقاة بينهن ، وهن يضمدن جراحها ، ويعطفن عليها غاية العطف ، فوقعت عليها وقلت كيف حالك يانعيمة ؟ انسيدك آسف كثيراً على ما فعل بك ، وهو يود لو يفديك بأعز ما لديه . فهلم إليه ، وسأحملك على ظهرى إن كان ذلك أدعى لراحتك .

ففتحت عينيهـا نحوى وحركت شفتيها تريد أن تتكلم ، ولـكنها لم تستطع الـكلام . فظلت ناظرة الى بعينيها وتحرك جسدها بأشارات كثيرة فهمت منها أنها تشكر العرب الذين التقطوها ، وأنها غير آسفة على ما أصابها ، فانما هو فى سبيل الحق والمروءة .

فالتفت النسوة إلى ياسيدى ، وقلن لى : إن هانه الفتاة فى خطر عظيم ، وقد لا تعيش أكثر من ساعات ، فاذهب وتدارك ما عسى تريد أن تتدارك . ولذا أسرعت إليك وأخبرتك بما تم فى شأنها .

أصغى أحمد افندى إلى غنيمى ، وقد تولاه الحزن واليأس والأسف . أما فايدة فلم ينقطع بكاؤها من أول حديث غنيمى ، وقالت : ياليتنى فقدت كل شىء ولم أفقد هانه الخادم .

ذهب غنيمى إلى خيام العرب بينما كان أحمد افندى والجميع ينتظرون عودته .

ووجد غنيمى العرب جلوسا حول اتون كعادتهم .

وقبل أن ينتهى من مصافحتهم ، قال موجهاً الـكلام إلى كبير العرب : ماذا فعلت الفتاة المريضة عندكم ؟

أجابه الرجل وقد شاركه بعض الأعراب : يابنى انها فى آخر رمق ، ونحن مجتمعون هنا الآن ، لأننا نتوقع أن تموت فنـواريها التراب . وكم قاسينا من الحزن ياولدى ، على ما أصاب شباب هانه الفتاة !

إن سيدى آت برجاله لينظر ما يصير اليه امرها ، وهو يجد من نفسه عليها اضعاف ما تجدون من الحزن والأسف ، لأنها خادمته الأمينة ، وطالما دأبت فى مرضانه والقيام على خدمته بأوفى وأخلص ماقامت به خادمة لمخدومها .

فقال كبير العرب بلهجة الغضب : هل لك أن تخبرنى عن قاتل هانه الفتاة الذى أودى بحياتها ؟ فوالله أنى ليعنينى أمرها ، ويشغلنى شأنها . فهى نزيلتى وطريحة فراشى ، ولئن عرفت قاتلها لأقتلنه ولأجردن عليه جياد الخيل ومرهفات السيوف حتى آخذ بثأرها منها

بلغ من القوة والمنعة .

قال غنيمى معجبا بشهامة العربى : إننى ياشيخ العرب لا أقدر على جواب هذا السؤال وليس عندى من العلم أكثر من أن سيدها أغير عليها وأحمى لجوارها ، وهو أقدر على البحث عن قاتلها ، ولايطيق صبرا على السكوت عن شأنها . . . إنهاخادمته وفى جواره وتحت رعايته . وها هو بالقرب منا مع رجاله تحت الأشجار ينتظرون عودتى .

وفى هذه اللحظة حضر أحمد افندى ورجاله ولم يكد أحمد افندى يستقر فى مكانه حتى ابتدر غنيمى قائلا .. أين نعيمة ؟

قال ها هى هنا ، مشيرا نحو خيمة النسوة ، فنظر أحمد افندى الى كبير العرب وقال مرلى أن أراها . فقال : بعد تناول القهوة أولا .

أرجو اعفائى من القهوة . وأنا شاكر لك جداً على حسن صنيعك مع الفتاة .

هذه عاداتكم معشر الأغنياء تترفعون عن تناطى قهوة أمثالنا ، ونحن لانرى احتراما لمن يرفض كرمنا ، فلا بدمن القهوة ان كنت شاكرا لناحقا ، ونظر إلى أحد الأعراب قائلا : جهز القهوة يامسعود .

وضع مسعود البن فى وعاء من الحديد وأخذ يقليه على النار ، حتى اذا ما انتهى من قليه وضعه فى هاون ، وأخذ ينقر نقرات مخصوصة ليحضر العرب على الصوت لتناول القهوة ، ولم يكد مسعود ينتهى من عمله حتى هرع العرب من كل فج اليه وغص بهم المجلس ، بينما أخذ أحمد أفندى يتفحص الجميع مستغربا عاداتهم وزيهم .

وأخذ أحمد افندى يقص على كبير العرب حديث السرقة بعد ما أخبروه بأن مرض الفتاة لم يكن من أجل الطعنة بل من الرطوبة الحادة التى أصابتها ليلا بالصحراء .

وبينما هم فى حديثهم وإذا بنعيمة مقبلة عليهم قائلة : تريدون رؤية نعيمة ؟ وماذا ترجون منها وقد فارقت الحياة . وما أتمت العبارة حتى فاضت روحها الطاهرة . ؟

عبد السلام سالم عثمان